

# الفصل الثالث

عرض وتحليل أعيان الاختيار

obeikandi.com

## موضوع الكتاب

ذكر الوزير ابن الخطيب في آخر كتابه « الاحاطة » أسماء مؤلفاته اجمالا ، وأورد من بينها مؤلفه «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار» على أنه مؤلف قائم بنفسه ، ثم أورده في باب « المقامات » من مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، وتحفة المنتاب » والذي يشتمل على أكثر من غرض ولون أدبي تاريخي .

والمعيار الذي نتعرض لدراسته عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكة غرناطة ، وأهم مدن المغرب ، تناول فيه ابن الخطيب النواحي الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لمعظم المدن التي أوردها .

لقد بدأ أول ما بدأ بجبل الفتح ( جبل طارق ) ، وهو يومئذ ضمن مملكة بنى مرين المغربية ، وكان طبيعيا أن يبدأ الوصف بالجبل ، فهو كما يقول المؤلف : « فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للارض المفارق » ، والجبل بالنسبة للبلاد الاندلسية « محط طارقتها بالفتح طارق » وله دوره الهام في حماية البلاد الاندلسية حيث أنه « مسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب والاكباد » .

أما المدن الاندلسية التي أعقبها الجبل في الوصف ، فهي — حسب الترتيب الذي أوردها به — كما يلي :

Estepona	1 - اسطبونة
Marabilla	2 - مربلة
Fuenjerola	3 - سهيل
Malaga	4 - مالقة
Velez Malaga	5 - بليش مالقة
Comares	6 - قمارش
Almuncar	7 - المنكب
Salobrana	8 - شلوبانية
Berja	9 - برجة
Dalias	10 - دلالية
Almaria	11 - المرية
Tabernas	12 - طبرنش
Vera	13 - بييرة
Mujacar	14 - مجاقر
Cantoria	15 - قنتورية
Purchena	16 - برشانة
Oria	17 - أورية
Velez Robia	18 - بليش الشقراء
Baza	19 - بسطة
Huescar	20 - أشكر
Andarax	21 - أندرش
Jubles	22 - شبالش
Juadix	23 - وادي آس
Finana	24 - فنيانة
Granada	25 - غرناطة
Alhama	26 - الحمّة
Zalía	27 - صالحة

Illora e Mouteferio	28 — ألبيرة ومنتفريد
Loja	29 — لوثة
Archidona	30 — أرجذونة
Antequera	31 — أنتقيرة
Coin	32 — ذكوان
Cartama	33 — قرطمة
Ronda	34 — رندة

وأما المدن المغربية فهي حسب ترتيب المؤلف أيضا :

- 1 — بادس ، 2 — سبتة ، 3 — طنجة ، 4 قصر كتامة ،
- 5 — أصيلا ، 6 — سلا ، 7 — أنفا ، 8 — أزمو ، 9 — تيط ، 10 — رباط
- أسفى ، 11 — مراكش ، 12 — أغمات ، 13 — مكناسة ، 14 — فاس ،
- 15 — مدينة الملك ، 16 — أقرسلوين ، 17 — سجلماسة ، 18 — تازة ،
- 19 — غساسة .

وعلى هذا فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الاندلس مدينة « اسطبونة » ، وانتهى بمدينة « رندة » ، وهو في تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيبا جغرافيا ولا تاريخيا ، بل ولا أولويا ، فقد كانت مدينة غرناطة مثلا في المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه ، رغم أنها حاضرة المملكة ، ولها من المبررات ما يجعلها أهلا للمرتبة الاولى من وصفه ، ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى ، أيا كانت دواعى التفضيل ، وكيفما بلغت أهميته .

لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة في وصفه ، فيتناولها من معظم ما يتعلق بها ، اذ يتحدث عن موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية ، وحالة سكانها الاجتماعية ، فيعطينا صورة واضحة — الى حد بعيد — عن كل مدينة تناولها قلمه .

ففى وصفه لموقع مدينة « قمارش » مثلا ، وما للموقع من أهمية ، يقول : انها « مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقد والغفر ،

حيث الماء المعين ، والقوت المعين » . وأما منتجات البلد من محاصيله ، فقد أشار الى أن « به الاعناب التى راق بها الجناب ، والزيتين واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكن » . وفي معرض الوصف الاجتماعى يستدرك ابن الخطيب ، ذاما أهل البلد حين يقول : « الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله » .

أما اذا ارتأى مدينة حقيقة بمدح أحوالها الاجتماعية فهو لا يقصر فى حقها ، فمثلا مدينة « المرية » - على حد قوله « محط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعرف تقطيبا » وهى - الى جانب تلك الرفاهية وذلك النعيم ، واللذة والسرور المقيم - « لم تزل - مع الظرف - دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامسك » ، فهو حريص فى الوصف ، دقيق فى الاحاطة ، شأن الخبير بالاماكن والبقاع .

ناخذ أيضا مثالا لنهج المؤلف فى الاشادة بالاجتماعيات عند الناس ، وطريقته فى العرض للحقائق ، وتقصيه لها ، حين يذكر عن مدينة برشانة أن « أهلها أولو عداوة لاخلق البداوة ، وعلى جوهم نضرة وفى أيديهم نداوة . يداوون بالسلافة علك الجلافة ، ويؤثرون علك التخلف على لذة الخلافة ، فأصبح ربعم ظرفا قد ملئ ظرفا ، فللمجون به سوق ، وللمجون ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق ، وهى تبين بعض بيان عن اعيان » ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر لهذه المثالب ، يذكر أن « وغدها ( المدينة ) يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه » .

هذا ، وقد ظفرت بعض المدن الاندلسية بعناية خاصة من قلم ابن الخطيب ، كغرناطة ومالقة ، ولا عجب فلكل منهما مركزها الادارى والسياسى ، فالاولى حاضرة ملك بنى الاحمر ، وزهرة المدن الاندلسية ،

ولها على ابن الخطيب أياد لا تنسى ، فكان عليه أن يوفيها حقها ، وأن يعطيها مستحقها ، فيدخلها — من وصفه — مكانتها اللائقة ، ولكن هذا لا يمنعه — كمؤرخ صادق — من أن يبرز لنا بعض عيوبها ، سواء في طقسها الشتوي ، وبردها الذي « يمنع الشفاء من رد التحيات » ، أو الاسعار التي « معيارها يشعر بالترهات » ، وجفاف طباع بعض أهلها ، الذي يصل الى درجة « سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونذالة الديار » ، فهذا المسلك من ابن الخطيب نحو المدن في وصفها يعطينا فكرة عن صدق قلمه، وتحرره من أي قيد، فغرناطة — وان كانت مقامه بجوار مخدوميه بنى الاحمر، ومحل سلطانه وجاهه — الا أن ذلك كله لا يمنعه من اعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه في هذا لا تأخذه لومة لائم .

لنستمع اليه في شأن العاصمة النصرية ، حين يستهل وصف حمرائها: « كرسيتها ظاهر الاشراف ، مطل على الاطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف » ، وفي معرض موقع المدينة ، يذكر لنا أن « هواءها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت — الجنوب عنها — الجبال ، فأمن الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفي جنة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال » ، كما يتحدث مشيدا بنهر شنيل ، وفضله على جنات غرناطة ومروجها ، فيقول « وانحدر منها ( جبل سييرا نيفادا ) مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط — بين يديها — المرح ( فحص غرناطة ) الذي نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تقلى بها مفارقه . ريع من واديه بثعبان مبين ، ان لدغ تلؤل شطه تلهها للجبين ، وولدت حيات المذائب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبات سلوكا تأتي من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مقتررة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغتررة » ، ان هذه الروعة البيانية ، ودقة التعابير البلاغية ، جعلت الصورة تتجسم أمامنا ، حتى لنكاد نلمس منها كل جانب .

ثم يعود المؤلف بنا من مطافه الى الحمراء مرة أخرى ، فيكشف لنا عن منشأتها الرائعة ، وجناتها الساحرة ، وكيف أنها مدرج سلالة بنى نصر ، فيقول : « وتبرجت بحمراؤها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات ، سافرة عن صفحات القباب المزخرفات ، تقذف بالانهار — من بعد المرتقى — فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسمارها نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهله ، وربت من ملوك جلة .. »

أما مالقة — عاصمة الحموديين الادارسة — فيتحدث المؤلف — باديء ذي بدء — عن تاريخها كعاصمة لهؤلاء فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، ثم يشيد بشهرتها الصناعية في الفخار والحريز « .. ومذهب فخارها له على الاماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحل ديباجها بالبداغ ذات تطريز » . وبعد أن يصور محاصيلها وفواكهها ، وما اشتهر به قومها من الاسهام بالبر بأوفر نصيب ، في تخليص أسرى المسلمين من أيدي النصارى ، ووفرة أعيانها وعلمائها — يتناول بعدئذ مساوىء المدينة ، فيقول : « وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيي بها سبالها ، وسروبها يستمد منها مشروبها ، فسحنها متغيرة ، وكواكب أذهانها النيرة متحيرة .. وطعاما لا يقبل الاختران ، ولا يحفظ الوزن ، وفقيرها لا يفارق الاحزان .. » الى آخر هذه المساوىء التي أوردها عن مدينة مالقة .

وهكذا نرى أن موضوع الكتاب في وصفه للبلاد الاندلسية أو المغربية قد اختط فيه ابن الخطيب موضوعية لا تبارى ، وشمولا في الوصف لمختلف النواحي ، التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، في صورة ناطقة نابضة .

## منهج ابن الخطيب في الكتاب

عندما كتب ابن الخطيب مؤلفه « معيار الاختيار » اختط في التحرير طريقة خاصة ، تختلف عن معظم كتاباته في مؤلفاته الاخرى ، ذلك أنه بدأ بمقدمة معتادة أعقبها بمحاورة ، ثم انتهى الى صميم الموضوع ، فقسمه الى مجموعتين مستقلتين ، وأدرج كل مجموعة تحت مجلس خاص ، وقصر المجلس الاول على المدن الاندلسية ، ثم أعقبه بالمجلس الثاني فقصره على المدن المغربية . وهكذا بدأ المؤلف كتابه في المجلس الاول ، بما جرت به عادة المؤرخين والمؤلفين المسلمين ، وذلك بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كل هذا في قالب يتناسب والموضوع الذي يتعرض له ، وهو وصف البلدان .

ثم ثنى بأن الانسان مدنى اجتماعى بطبيعته ، لا يستقيم حاله بدون مجتمع ، وبالتالي لا يقوم المجتمع بدونه ، وأنه - أى الانسان - أحيانا يتخذ سكناه حسبما اتفق ، وأحيانا يكون له ظرف الاختيار ، مرجحا من الامكنة ما غلبت حسناته على سيئاته ، وهذه الامكنة « كثيرا ما تتأفر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر » ، وأيا كان ، فإنه لا توجد مدينة قد كملت من كافة النواحي كما يقول .

وبعدئذ يتحدث المؤلف عن خبر في قالب قصة ، فهناك راو استهواه مكان ما ، فنزل به حتى حل المساء ، وحينئذ أبصر شيئا معه تلميذه وحماره ، وما استقر المقام بذلك الشيخ حتى حن الى صباه ، وضاق بمرارة المشيب ، وقسوة الغربة ، وشعوره بأن نفسه لم تنب بعد ، وأخيرا يسأل الله العفو والغفران ، والقربى من رحمته يوم الحساب ، معتمدا في اجابة سؤله على شفاعة شيبه ، ثم تدور مناقشة بين الشيخ وفتاه ، وعندها ينبرى الشيخ ، فيحدثنا عن مدى خبراته في أمور شتى

نتيجة علمه وبحثه ، وجوبه بلاد العالم ، ووقوفه بأقطار كثيرة للـدرس والبحث . وتكون النتيجة أن يتقرب الراوى الى الشيخ ، مطمئنا اياه الى حسن طويته ، وما عليه من خلق يؤهله لان يتشرف بالاستماع الى فيض علمه ، ويسأل الراوى الشيخ ان يصف له بلاد الاندلس ثم بلاد المغرب ، فى دقة وأمانة واخلاص ، فأجابه الشيخ الى طلبه ، وبدأ الراوى بالسؤال عن جبل الفتح (جبل طارق) وهكذا .. حتى انتهى من المدن الاندلسية بمدينة « رندة » . ثم أخبر الشيخ سائله بأن الصبح قد قارب الوجود ، وأنه قد وفاه - فى الوصف - حساباه ، ولم يبق الا أن يكافئه على هذه الذخائر حتى يكون له أليفا ورفيقتا ، فينثر الراوى المال بين يدي محدثه فيأخذ منه شاكرا ، وأخيرا يتفقد الراوى الشيخ على ضوء مصباح ، فلا يجد له أثرا ، « فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره » ، فيتأسى الراوى عن هذا الفراق بأن « لكل اجتماع من خليلين فرقة » .

هكذا ينتهى نهج المؤلف فى « المجلس الاول » من كتابه .

أما فى « المجلس الثانى » فان الراوى يلج أحد الاسواق ، وفى السوق « أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب » ، فى بيع وشراء ، وتحايل للتعايش والكسب ، بمختلف الوسائل والاعمال ، فهناك « رقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استنظل بقطون » ، قد ادعى العلم بالمغيبات ، والتفسير للمشكلات والاحاطة بأسرار الطبيعة ، وشفاء العضال من الامراض ، وفى مجال العلوم قد برع ، ما بين طب ورياضة وتاريخ وجغرافية، وحديث وتفسير، ومنثور ومنظور، ومنطق وبرهان ، فهو قد جاب الاقطار فى الـدرس والبحث والمعرفة . وهنا يجد الراوى بعينه ، فقد ذكره ذلك الرجل بالشيخ الاول ، فأراد أن يستكمل

معلوماته عن البلدان ، فاخترق اليه جموعا بشرية من قصاده ، وخطابه بقوله : « بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون » فأجابه الشيخ موافقا ، متحفظا بأنه « لا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد » .

وهنا يسأله الراوى عن البلاد المغربية ، بادئا منها بـ « بادس » ، والشيخ يجيبه بمعلوماته عنها، واحدة تلو الاخرى، حتى ينتهى منها بمدينة « غساسة » ، وعندئذ « وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام » كما قال الشيخ ، فقد انفض عن السوق أهله ، ولم يبق الا أن ينثر الراوى دنائيره ، مكافأة طيبة لمحدثه، فيتناول منها ما تستغنى به النفس، وقبل أن يتهيا للسير لم ينس - وهو الحكيم المجرب - أن يزود الراوى بنصح منظوم ، فيه مزايا التحلى بالقناعة ، والايمان بالقضاء والقدر ، والتحفظ على السر وكتمانه ، وتحاشى التعثر بالناس ، وتقوى الله تعالى، فالقرب منه رهن بها ، وليست هناك خسارة أفدح من معصية الخالق . وأخيرا نرى الشيخ قد « ضرب جنب الحمار . واختلط في الغمار » وبقي الراوى ينتبع أثر الشيخ، ولكنه تعزى عن فراقه بأن «كل نظم الى انتشار»

بهذا ينهى ابن الخطيب « المجلس الثانى » ، وبانتهاء « المجلس الثانى » ينتهى الكتاب نفسه .

هذا هو المنهج الذى سلكه ابن الخطيب المؤلف فى كتابه « معيار الاختيار » ، وهو منهج - كما رأينا - قصصى ، دار فى غلك نوع خاص من القصة ، وهذا النوع هو الذى عرف من بين فنون النثر العربى باسم « المقامة » ، متخذا من المحاوراة وسيلة لتشويق القارىء والمستمع ، وبخاصة فى صلب الموضوع ، عند وصفه للبلاد .

## قيمة الكتاب الادبية ومدى صلته بفن المقامات في الأدب العربي

ذكرنا أن « معيار الاختيار » قد جاء في صورة قصة محدودة ،  
والقصة من أدق الفنون الادبية وأصعبها تركيبا ، وهي تتمتع من بين سائر  
فنون الادب بالذويوع والانتشار ، لما تشتمل عليه من استمالة القلوب ،  
وامتناع النفوس ، فالآداب العالمية قد زحرت بهذا اللون الغنى منذ أقدم  
العصور ، ولقد ورثنا عن العرب منذ جاهليتهم ذخيرة نفيسة من القصص،  
تناولها المشتغلون بالبحث والنقد درسا وتحليلا ، وانقسموا حيالها الى  
فريقيين متباينين ، ولكل وجهة ، فبعض المستشرقين في دراستهم للقصة  
العربية يرون مع « كارادي فو » أنه « لم يسبق الادب العربي أى أدب  
آخر في نوع الاقاصيص، بينما البعض الآخر يرى أن العرب - ابا ن حضارتهم  
- زدوا لغتهم بفلسفة الشعوب وعلومهم ، وتجاهلوا أدب القصة تجاهلا  
يكاد يكون مطلقا ، ومن ثم جهلوا أصول الفن القصصي ، فكانت قصصهم  
تفقد قيمتها الفنية تبعا لذلك .

وانصافا للحق نقول : ان القصص العربي ذو ألوان مختلفة ، وقد حظيت  
بعض هذه الالوان بعناية العرب ، فراعوا في صوغها مقومات القصة ،  
وأسس بنائها ، فجاء هذا اللون منها تحفة فنية ، لها قيمتها وروعنها ،  
والبعض الآخر من ألوان القصة العربية فقد معظم هذه الاسس ، فكان  
مثارا للنقد ، ومحلا للملاحظة .

والقصص العربي أنواع : أشهرها القصص الديني ، ومصادره  
التوراة والانجيل والقرآن ، ثم ما جاء على السنة الرواة والمحدثين من  
أخبار الاولين وقصصهم ، مزج فيها القصص الحقيقية بالخيال ، والتاريخ  
بالاسطورة . وكان الهدف من هذا النوع من القصص الوعظ والارشاد في  
معظمه ، ترغيبا في الجنة وترهيبا من النار .

ومن أنواع القصص أيضا عند العرب القصص التاريخي البطولي ، كقصة عنتر بن شداد في حروبه ، وسيف بنى يزن في كفاحه ، وحرب البسوس في طولها وشناعتها ، ومنها القصص العاطفي ، كقصة « قيس المجنون بليلاه » ، وعنتر العاشق لعبلة ، وكثير الواله بعزة ، الى آخر هذه الالوان القصصية ، التي تزخر بها كتب الادب العربي ، وبعض التراجم الاجنبية . على أنه من الملحوظ أن القصة العربية تطورت مع الزمن ، واتخذت في كل عصر طابعا خاصا ، رقيقا عما قبل ، مع متانة في البناء ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، وقد تولد عن التصرف في تركيبها نوع خاص منها ، وهو ما سمي — بين فنون النثر العربي — باسم « المقامة » ، والتي تركز على العناية بالاسلوب ، وتغليب الشكل على الجوهر ، فمن مقوماتها البلاغية السجع والجناس والكناية والتلاعب بالالفاظ ، ومن مقوماتها اللغوية طائفة ضخمة من شوارد اللغة ، وشواذ القواعد النحوية ، ومن مقومات أسلوبها — كذلك — تضمينها بعض آيات القرآن الكريم ، أو الحديث النبوي ، أو الحكم والامثال ، أو المنثور أو المنظوم ، كما تشتمل المقامة على المعلومات الفقهية والطبية والعروضية والتاريخية ، الى غير ذلك مما عرف في عصر المولعين بصناعتها .

فالمقامة — اذن — نوع من الترف الادبي ، وميدان للتدليل على مبلغ معرفة المؤلف بالعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وقد ابتدعتها « بديع الزمان الهمذاني » من أشهر أدباء العصر العباسي ، ويقال : انه أنشأ حوالي أربعمئة مقامة ، ولكن لم يظفر الناس منها اليوم بأكثر من نيف وخمسين مقامة ، ومن مقاماته الشهيرة المقامة القريضية ، نسبة الى القريظ ، وهو الشعر ، لانه موضوعها ، والمقامة الخمرية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة الدينارية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الكوفية ، ثم قلده في نفس العصر كثيرون ، ولكن الحريري كان بارعا فيها أيضا ، ومن مقاماته المعروفة مثلا « المقامة الصنعائية » نسبة الى صنعاء ، احدى مدن اليمن المشهورة .

أما ماذا يقصد بالمقامة عموما فهو تصوير بؤس الأدباء ، واحتيالهم أحيانا لكسب عيشتهم ، ولها رواية ينقل الخبر ، وبطل تدور حوله حوادثها .

على أن هذه المقامة قد اختلفت من الادب العربي بعد ناصف اليازجى اللبناني فى كتابه : « مجمع البحرين » ، ومحمد المويلحى المصرى فى كتابه ذى الشبه الكبير بالمقامة « حديث عيسى بن هشام » ، اذ لم يعد أحد بعدئذ يلتفت الى هذا اللون الادبى من أدباء عصرنا الحاضر .

هذا ، وقد كان من الطبيعى أن ينتقل فن المقامة من المشرق — منذ ظهوره — الى الاندلس ، وذلك عن طريق الرحلات التى قام بها كثير من الاندلسيين الى الشرق يطلبون العلم ، والذين عادوا الى موطنهم بعد أن درسوا — ضمن ما درسوا — هذا الفن ، فنشروه بين مواطنيهم ، وقد لوحظ أن مقامات بديع الزمان الهمذانى ورسائله — التى أشرنا إليها — قد ذاعت خصوصا فى عهد ملوك الطوائف بالاندلس ، فقد قام بعض الأدباء الاندلسيين يومئذ بمعارضة هذه الرسائل والسير على نمطها ، ومن هؤلاء الاديب عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، الذى عارض مقامات البديع ، حسبما يروى ابن بسام عن هذا الاديب المعاصر للمعتضد بن عباد بأشبيلية 434 — 461 هـ ( 1042 — 1068 م ) . كذلك روى ابن بسام عن الشاعر أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالى سنة 420 هـ ( 1029 م ) أن هذا الاخير عارض رسالة للهمذانى فى وصف غلام ، وفى موضع آخر من كتاب الذخيرة يورد ابن بسام أجزاء من مقامتين ، أحدهما لآبى حفص عمر الشهيد ، والاخرى لآبى محمد بن مالك القرطبى ، وهذان الاديبان عاشا فى عهد المعتصم بن صامح بمدينة المرية الاندلسية 443 — 484 هـ ( 1051 — 1091 م ) .

ونزيد تعريفا بصلة المغرب بالمشرق حول فن المقامة ، فنذكر أيضا أنه فى أوائل عهد المرابطين بالاندلس انتشرت مقامات الحريرى بالمغرب على مدى واسع ، فى الوقت الذى انتشرت فيه بالشرق ، واهتم علماء

الاندلس بحياة مؤلف هذه المقامات ، فقد روى ابن الأبار « أن كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريري مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم ، حيث حدثوا بها عنه » ، ومن هؤلاء الحسن بن علي البطليوسي المتوفى عام 566 هـ (1169 م) وأبو الحجاج يوسف القضاعي البلسنى المتوفى عام 542 هـ (1147 م) .

وقد تابع الاندلسيون الاستغال بفن المقامة حتى نهاية عهدهم الاندلسى ، أيام بنى الاحمر فى غرناطة ، ومن أشهر أدباء هذا العصر الذين زاولوا هذا الفن الأدبى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، بمقاماته العديدة التى أنشأها ، والتى منها : الكتاب الذى نتعرض لدراسته هنا ، وهو « معيار الاختيار » ، ومقامته « خطرة الطيف » ، فى رحلة الشتاء والصيف و « مقامة السياسة » وغيرها .



وعلى ضوء ما أوجزنا بيانه عن «المقامة» ومقوماتها ، ومدى صلتها بفن القصة العربية ، وعن دور الاندلسيين فيها بالنسبة للمشاركة، نستطيع أن نزن كتاب « معيار الاختيار » فى هذا الميدان ، فنقول : انه عبارة عن وصف قصصى ، جاء فى صورة مقامة تقليدية ، حاول بها ابن الخطيب — كما حاول فى غيرها — أن يجارى بها من سبقوه فى هذا الميدان ، وفى سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان ، وبخاصة مقدمة كل من المجلسين ، ونهايتهما ، حيث انصرف فيهما الى حد ما عن المعنى الى اللفظ مما أفقد المقدمة — خاصة — قيمتها الادبية ، من أديب مثل ابن الخطيب .

ولكن عندما تناول صلب الموضوع ، فانه — وان كان قد عنى بالاسلوب أيضا — الا أن الوصف للمدن عموما قد جاء تحفة فنية رائعة ،

فقد تناولها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، وتمكن - رغم قيود السجع والجناس والكناية وغيرها - من ابراز هذه المعالم في صورة مشوقة . ومع ذلك ، نرى أن ابن الخطيب لو أطلق لنفسه العنان في هذا المؤلف التاريخي ، وحرر نفسه من هذه القيود اللفظية التي كبل بها قلمه - لجاء وصفه للبلدان أبدع فنا ، وأشمل موضوعا ، فلا شك أنه حصر نفسه في نطاق ضيق ، كانت نتيجته الحتمية أن فوت علينا المؤلف انطلاقاته المعروفة عنه ، في تقصى المعانى ، والاحاطة بثنات الموضوع الذى يتعرض له .

### قيمة الكتاب كوثيقة تاريخية

توجد لكتاب « معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار » أكثر من مخطوطة ، في الاسكوريال والرباط ، وفاس ، وقد ورد هذا الكتاب ضمن مؤلف آخر من مؤلفات ابن الخطيب ، وهو « التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى » ( 554 الاسكوريال ) ، كما ورد ضمن مؤلفه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » حيث أورده المؤلف في باب « المقامات » . وقد ألف ابن الخطيب « معيار الاختيار » هذا عندما نفى الى المغرب مع سلطانه الغنى بالله ابن الاحمر المعروف بمحمد الخامس ، حيث حلا ضيفين على السلطان أبى سالم ملك المغرب ( محرم 761 هـ - 1359 م ) ولكن ابن الخطيب لم يذكر في الكتاب تاريخ تأليفه بالضبط ، وانما عرفنا الفترة التي ألفه خلالها من مؤلف آخر له ، حيث ذكر به أنه دون بعض كتبه خلال سنوات المنفى الثلاث التي قضاها بمدينة سلا بالمغرب (1) . ( 760 - 763 هـ ) = ( 1358 - 1361 م ) ، ومن بين تلك الكتب « معيار الاختيار » ، وقد أدرج الغزيرى هذا المؤلف تحت رقم 1777 بفهرس المخطوطات الغربية بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

(1) ابن الخطيب في « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » ، مكتبة الاسكوريال بمدير لوحة (67) .

ولما كنت قد قارنت — أثناء البحث والدراسة — بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب ، والتي وجدتها في كل من مدريد والرباط وفاس والقاهرة والفاتيكان ، فقد بان لى أن أكملها وأوفأها — كما ذكرت — مخطوطة الاسكوريال بأسبانيا ( رقم 554 ) ، وقد ذكر ناسخ هذه المخطوطة أنه كتبها عام 173 هـ ( 1468 م ) ، أى بعد تدوين ابن الخطيب للكتاب نفسه بحوالى 112 عاما تقريبا ، وبعد وفاة المؤلف بنحو 97 عاما .

وقد نشر المستشرق الاسبانى « سيمونيت » القسم الاول من « معيار الاختيار » ، بعد أن فصل عنه المقدمة التى أشرنا الى مضمونها ، وهذا القسم هو الخاص بمدن مملكة غرناطة ، وعددها أربع وثمانون مدينة ، تحت عنوان « وصف مملكة غرناطة ، فى عهد بنى نصر » (1) . ثم نشر باقى الكتاب — وهو الجزء الخاص بمدن المغرب — المستشرق الالمانى « مولر » ، متضمنا وصفا لجبل الفتح ، وسبتة ، ومراكش ، وأغمات ، فى مجموعة خاصة (2) . ولم يفت هذا المستشرق أن ينوه ببعض الاخطاء التى وقع فيها زميله الاسبانى « سيمونيت » عند تحقيقه للجزء الخاص بمدن الأندلس ، وأن كان هو بدوره قد وقع فى عدة أخطاء أثناء التحقيق ، وذلك نتيجة عدم التمرس بالاساليب العربية ، ولا سيما عبارة ابن الخطيب كطابع عام لما كانت عليه اللغة فى العصور الاسلامية الوسطى .

وتجدر الاشارة الى أن قيمة « المعيار » تمكن فى التعريف بالوضعية التى كانت عليها كل من مملكتى بنى نصر وبنى مرين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن ابن الخطيب قد حدثنا — بحق أيضا

(1) راجع :

Descripcion del Reino de Granada bajo la Dominacion de las Nazaritas (Madrid, 1861).

(2) راجع :

Beitrag zur Geschichte des Westlichen, Araber (Munchn, 1866).

خصوصا - عن عاصمتي كل من الاندلس والمغرب في عصره ( غرناطة وفاس ) ، سالكا نفس الموضوعية تجاه كليهما ، دون أن يخفى لوما فيما لاحظه من مثالب بالنسبة لهاتين العاصمتين .

ونحن نعتقد من جانبنا أن المؤلف - عند تدوينه لهذا الكتاب - قد اعتمد على مصادر ثلاثة :

1 - زيارته للمدن التي تناولها قلمه :

فمن المعلوم أن ابن الخطيب كان قد وزر للسلطان يوسف الاول النصرى 733 - 755 هـ ( 1333 - 1354 م ) ثم لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس 755 - 760 هـ ( 1304 - 1359 م ) ثم - للمرة الثانية - عام 762 - 793 هـ ( 1361 - 1392 م ) ، وطبيعة المنصب تقتضى تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الاندلسية ، للوقوف على أحوالها ، وحركة دولا ب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وارشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زيارته . كما أنه رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الاول في زيارته التاريخية ، والتي بدأها من غرناطة في 17 محرم 748 هـ - 1347 م ، صحبة الحاشية ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذه الرحلة ، سماها : « خطرة الطيف ، في رحلة الشتاء والصيف » جاء فيها أن الراكب الملكى - بعد أن غادر العاصمة - وصل الى مدينة وادى آس ، وهناك استقبلهم الاهالى استقبالا رائعا ، ثم اتجهت القافلة شرقا مارة ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة ، وبرشانة ، وهنا صور ابن الخطيب الحالة التي كان يعانيها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية والسيول الموسمية ، ثم زار الراكب مدينة « بيرة » ، أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف ، من جراء هجوم الاسبان المفاجيء بين حين وآخر ، كما صور لنا وعورة موقع المدينة ،

وصعوبة مسالكها ، حيث اضطروا للاسترشاد بدليل ماهر ، يكشف لهم طريقهم في الجبال بين الروابي والوهاد .

وأخيرا يعود الموكب الى قاعدته « غرناطة » ، راجعا من طريق آخر ، مارا بثغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الاسطول الحربى ، واستقبل رجاله في زيهم الرائع الانيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، مثل : بجانة ، وبرشلونة وفنيانة ، وينتهى المطاف بمدينة وادى آس مرة أخرى ، ومنها الى العاصمة « غرناطة » (1) .

وبذلك أتاحت فرصة رسمية هامة للوزير ابن الخطيب ، حيث وقف على أحوال هذه المدن الاندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون لنفسه ودون في مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطانى التاريخى .

أما بالنسبة للمدن المغربية فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر من مرة ، وفي كل مرة كان يتجول في البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ، ولاسيما رجال الادارة والعلماء والخاصة ، ولا بد أنه شافه الكثير منهم برغبته في الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعياتهم ، وكانت المعاينة لديه وسيلة هامة في وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجلاء الشكوك .

لقد زار ابن الخطيب المغرب لأول مرة سفيرا من لدن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر ، الى سلطان المغرب عام 755 هـ = 1354 م .

(1) راجع التحقيق الحديث لهذه الرحلة في كتاب « مشاهدات ابن الخطيب في بلاد الاندلس والمغرب » للدكتور أحمد مختار العبادى ، طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ، حيث تقع هذه الرحلة بين هذه المشاهدات ص : 25 - 35 .

ثم رجع الى المغرب مرة أخرى ، ولكن منفيا مع سلطانه المخلوع الغنى بالله ابن الاحمر ، وذلك في محرم 761 = 1359 م ، وفي هذه المرة مكث بالمغرب ثلاث سنوات تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك في موضعه ، وفي تلك الاثناء زار بعض المدن المغربية ، ودون بعض رحلاته يومئذ في كتابه المعروف باسم « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » ، الذي وضعه بالمغرب مع بعض الكتب الاخرى ، التي منها كتابنا « معيار الاختيار » .

وأخيرا استقر ابن الخطيب بالمغرب حينما فر من الاندلس ، حيث شعر بما يدسه له خصومه عند السلطان الغنى بالله ، على نحو ما هو معروف من تاريخ مأساة هذا الوزير ، فوصل المغرب عام 773 هـ = 1371 م ، وبقي به حتى نكب وقتل عام 776 هـ = 1375 م .

فهذه ثلاث زيارات قام بها المؤلف للمغرب ، سفيرا ، فمفنيا ، فقارا ناجيا بحياته أخيرا ، وتعتبر فترة النفي — من بين هذه الزيارات الثلاث — فترة البحث والدرس والتأليف عند ابن الخطيب ، فقد منح الرواتب وأقطع الاراضى ، واستقرت نفسيته الى حد سمح له بمواصلة تأليفه .

أما المرة الاولى فكان وقتها أضيق من أن يتسع للتجوال عبر المدن المغربية ، فهو حينئذ سفير منوط به أمر رسمى ، وذو قيود وحدود مرسومة .

وأما في المرة الاخيرة حيث استقر نهائيا بالمغرب ، فنرجح أن ابن الخطيب لم يتجه كثيرا للبحث والتدوين ، فقد كانت الهزات السياسية بالمغرب تتناوشه ذات اليمين وذات الشمال ، بفضل مواصلة خصومه — بغرناطة — السعى في القضاء عليه ، وعلى رأسهم سلطانه القديم « الغنى بالله » والذي تأثر الى أبعد حد بسعاية هؤلاء الخصوم ، ومع هذا فقد ألف ابن الخطيب ابان هذه الفترة كتابه « أعمال الاعلام ، فيمن بويح قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام » ، استجابة للظروف الجديدة التي أملت عليه اصدار هذا المؤلف

## 2 - الاطلاع والسماع :

وهو المصدر الثانى من المصادر التى اعتمد عليها ابن الخطيب فى تدوين كتابه « معيار الاختيار » ونعنى به قراءته لكتب من سبقوه من المؤرخين والكتاب فى أوصاف المدن الأندلسية والمغربية على الخصوص، وفى تاريخها الحافل بالاحداث ، وكذلك سماعه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فى أحوال المغرب منذ القدم، وأحداث المملكة الإسلامية بالأندلس، لا سيما وأنه تربى فى أحضانها ، ودرج بين ربوعها ، وجاس خلال ديارها ، فحديثه عنها حديث الخبير العالم ، ووصفه لها وصف المحيط بأسرارها . هذا بالإضافة الى مجالس ابن الخطيب العلمية ، وندواته الثقافية ، والتى كانت كثيرا ما تجمع رواة الاخبار ، وحفظة التاريخ .

## 3 - التقارير الادارية الرسمية :

وابن الخطيب كوزير ، وأمين سر السلطان ، لا بد وأن يطلع على كافة التقارير الرسمية ، والرسائل الادارية ، التى كانت ترد عادة الى الديوان من عمال وحكام الاقاليم ، فهذه التقارير وتلك الرسائل وثائق تاريخية لها أهميتها البالغة ، اذ على أساسها - فى العادة - تدار سياسة الدولة ، وتوجه الامور الوجهة الصالحة ، لذلك نرى أن ابن الخطيب قد استفاد الى حد كبير من هذه الوثائق ، بالإضافة الى المصدرين السابقين، وبذلك أمكنه أن يعطينا هذه الاوصاف لتلك المدن فى مؤلفه « معيار الاختيار » .

هذا ، وينبغى أن نشير اخيرا الى أن شخصية المؤلف وعلاقتها بالآخرين لا بد وأن تتعكس على كتاباته ، وهذا ما وضح من خلال اوصاف ابن الخطيب لبعض البلاد وأهلها ، فانه وان كان قد تعمق فى البحث على نحو دقيق ، وحلل الاسباب والمسببات حتى جاء الموضوع

وثيقة تاريخية يعتمد عليها الى حد بعيد - وبخاصة اذا اعتبرنا قلة المراجع التاريخية التي تناولت العصر الذي عاشه ابن الخطيب ، وذلك في أخبار كل من الاندلس والمغرب - الا أنه لا ينبغي أن نغفل الدوافع الشخصية ، والنزعات النفسية للمؤلف أيا كان ، فهذه وتلك لا بد وأن يحسب حسابهما ، ويقام وزنهما ، في تقييم مثل هذه الوثيقة التاريخية ، لرجل وزير كابن الخطيب ، قضى حياته بين تيارات السياسة ، تتنازعه الاهواء والدوافع ، يعطف على مسلكة البعض ، وينقم على خطته البعض الآخر ، وبالتالي يكون اتجاهه متباينا نحو كليهما ، وما يصدق على الافراد يصدق على مجموعة منها تؤلف بلدا أو مدينة .

وللتدليل على هذا التأثير النفسى عند الكاتب ، وانعكاسه على ما يحرره ، نذكر أن ابن الخطيب نفسه قد صب جام غضبه على مدينة سلا المغربية ، في رسالته المسماة « مفاخرات بين مالقة وسلا » ، رغم أنه أقام بها طيلة فترة النفي الاولى ، قرابة ثلاث سنوات ، واحتوته عزيزا مكرما ، ولكن كان قد حدث احتكاك بينه وبين بعض الفقهاء من أهل هذه المدينة ، الامر الذى ساقه الى تأليف رسالة خاصة ، في النيل من هؤلاء الفقهاء ، وهى المسماة « مثلى الطريقة ، في ذم الوثيقة » ، في أسلوب يفيض اقذاعا ونبيلا غير كريم من الخصوم ، وعليه - بالتالى - فلم يكن من المنتظر أن يرتفع ابن الخطيب بمدينة سلا في المفاخرات مع مالقة .

فنخلص من هذا الى أن ابن الخطيب لم يسلم - الى حد ما - من تحامل في وصفه لبعض المدن الاندلسية والمغربية في كتابه « معيار الاختيار » ، وبخاصة عندما كان يتناول أحوال سكانها الاجتماعية . بيد أن هذا التحامل الضئيل المفترض لن يطغى بحال على ما للكتاب من قيمة تاريخية كبرى ، ولا يمنع الدارسين لتاريخ المغرب والاندلس - في الفترة التى عاصرها ابن الخطيب - من الاستفادة من « معياره »

هذا الى حد بعيد . . ، اذا ما عن لهم الكشف عن الحالة الاجتماعية بهذين القطرين في ذلك العصر ، وعن الاقتصاد ، والمحصولات الزراعية ، وأهمية الاسواق ، والصناعة الاندلسية ودورها ، وما الى ذلك مما تناوله المؤلف ، تجاه البلاد الاندلسية والمغربية ، في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي .